مأساة الجمال فى زمن الحرب

بقلم : الدكتور حسن فتح الباب

يعزف الشاعر اليابانى ايباركى نوريكو فى قصيدته "عندما كنت آية فى الجمال" التى صاغها بلسان امرأة على وتر شديد الوقع والشجى فريد فى نبرته ، قليل مثله كثير من النماذج الشعرية التى تمتاز بمثل هذه الرهافة البالغة ، والقدرة على اثارة الكوامن الكفيلة من أغوار النفس وتحميل الشعور بمأساة الحرب . كما تمتاز بازدهار الجماليات الفنية . وربما يرجع ذلك الى أن القصيدة تعبر عن رؤية شاعر أوتى حسا انسانيا بالغ الذروة فى الصفاء والشفافية ، وحسا فنيا فى نفس المستوى ... فانسابت أبياته فى تلقائية آسرة يشعر القارئ من ورائها بسيطرة الشاعر من خلال خبرته الفنية على هذه التلقائية كى يصل الى جوهر الكمال الفنى ، وهو البساطة والروعة معا أو ما نعبر عنه بالسهولة والامتناع . وقد كان الاسلوب الذى مكنه من تحقيق هذه الغاية هو استرجاع المرأة ذكرياتها فى عهد الشباب الذى أدركته الحرب العالمية الثانية بشرورها وأهوالها .

ان القصيدة تلمس القلب منذ البداية ، فهى تدخلنا عالم الشعر الساحر منذ أولى كلماتها .. عالم حقيقى ولكن له جبير الاساطير . فها هو الشاعر يهمس لنا بصوت يابانية ملتاعة :

عندما كنت آية فى الجمال
كانت المدن تتساقط
ومن أماكن غير متوقعة
كانت السماء الزرقاء ترى

أى قلب يقرأ هذه الأبيات ولا يعتاده الأسى لذكر الغد والمفقود ، أيام الصبا ، عالم البراءة والحب والجمال ، ثم لا يضنيه الألم لهذه البشرية التعسة التى تدمر بيديها ما تبنيه ، أو تستبد به النقمة على الايدى البهجية التى تسرق حتى أحلام الشباب ، ولا تبقى لهم غير الخوف والويل والدموع . أننا بين يدى أمرأة تقص علينا فى نغم حزين كيف كانت فى ربيع العمر زهرة ريانة النأس فاغمة العطر رائعة البهاء تختلج أمام أعيننا أجمل الرؤى ، ونتذكر دقات القلب الأولى ونستعيد عهد التألق والمرح .

ولكنها لحظة تمر بنا كالخيال ، فما تلبث مأساة الانسان أن تتسلل من كلماتها البسيطة المشحونة فتحتضر جوانحنا اعتصارا .. انها الحرب فى بشاعتها ، تلك البشاعة التى تقف شبحا يخيم دون اشعاع الجمال الذى وهبته الصبية فى نفسها ومن حولها . هكذا تذهب نفسها حسرات وهى تردد : كنت آية فى الجمال ، ولكن الفواع الموحش كان يلف كل الأشياء ، ويغشى وجه الكون بنقاب كئيب . ولم يكن فراغ الأرض المجدبة أو البيداء المحرقة ، بل كان الفراغ الذى خلفه حريق الحرب فى وطنى الحبيب . كان هذا الدمار الذى أحال المدن المأهولة الصاخبة الى خراب بلقع . و لقد شهدت عيناى فى وجوم مبانيها الشاهقة والمتلألئة الانوار وشرفاتها الفاحكة التى صفت عليها أصص الأزهار ، اذ تتساقط فى فوضى وحشية ، فيثب الفزع من عينى وتوشك أضلاعى أن تخنقنى .

ولكن الصبية الجميلة تواصل طريقها وأشباح الفواع تتبعها فى كل خطوة لم يعد عالمها تلك الدور المتجاورة والشوارع والحدائق التى طالما اتخذت منها هى وأترابها مذهب ، وذرعت دروبها وثبا وعدوا ، ومدّها الناس بالحياة وزينتها الأيدى الحانية الصلبة بالأشياء الملونة البهيجة .. وها هى السماء قد كشفت عن وجهها فى الاماكن التى لم تكن تظهر فيها أبدا . فلقد انهارت فجأة ، وعلى غير ما كان يتوقع أحد ، مجموعة الأبنية والمصانع التى كانت جدرانها العالية تخفى زرقة الأفق هناك .

عندما كنت آية فى الجمـــــال
تقتل أشخاص كثيرون من حولى
فى المصانع ٠٠ فى البحر ٠٠ على جزر مجهولة ٠٠
وضاعت على فوهة وضع " مكياج "

يا للجمال العبقرى الحالم حين ترف من حوله أجنحة الحب والسلام ٠٠ والويل له اذا تناثرت قطرات دمه فى دم مسفوك ٠٠ دم مواطنيه الشرفاء من محاربين وامنيين أبرياء ٠٠ هذا هو الايحاء الشجى الذى يردده الشاعر ايماركى فى المقطع الثانـــى اذ يقول بلسان الصبية التى أدركتها مأساة الحرب : كثيرون هم هؤلاء الذين سقطوا من حولى ضحايا الكارثة البشرية ، ووقودا للغريزة الهمجية الجائحة : للشر ، لمقـــت والانتقام وكانوا يرفعون على دقات قلوبهم الشابة قواعد البيت الرابع السعيـــــد وآلات مصانع الحرير واللحب ، أو ينشدون أغنيات البهجة والامس العذبة الحارة فـــى رحلاتهم عبر البحار فى قواربهم ينشدون الصيد ٠ كما كانوا هناك تحت الشمس المشرقة فى الجزر اللؤلؤية النائية التى لم تكتحل عيناى برؤية الشفق والفجر على تلالها ووهادها ٠

لقد صرعهم الموت قتلا فالتقفهم قاع الابدية الرهيب ، وكأن قتلتهم من بنى جنسهم ، كانوا من أبناء الإنسان ٠٠ لقد شوهوا آية الجمال وألقوا بى فى غيابـــة الضياع ٠٠ كنت آية فى الجمال ٠ ولكنى لم أملك بين أشباح المأساة حتى التفكير فـــى أدوات الزينة ولمسات المكياج ٠

عندما كنت آية فى الجمال
لم يمنحنى أحد هدية رقيقة
لم يكن الرجال يحسنون الا أن يحيوا
ثم يمضوا مخلفين ذكريات أعين لامعة

يقطر هذا المقطع من القصيدة رقة ونعومة ، ويتفجر فى الوقت ذاتـــــه وجدا ومواجع ٠ فليس أشد اثارة للاحساس بالفاجعة التى يصورها الشاعر من منظـــــر زهرة يابانية ورفرافة ندية فى صورة امرأة تنبض الحياة حارة فى كل خلجة من خلجاتهـــا ٠

ثم لا تقع عليها عين أو ينعطف اليها قلب محب ٠ لا أحد يمنح هذا السحر الأنثـوى المتدفق هدية ٠٠ منديلا أو زهرة ٠٠٠ قربانا صغيرا للجمال الالهى البشرى ، فلقد ذهبت كارثة الحرب بعاطفة الحب كما وطئت سنابكها النارية كل نبتة خضراء ، فـــلا صديق ولا رفيق ولا معنى للحياة ٠

*